

## ختام العدد الخبّاز والكتابةُ الحكيمة

كلما نظرتُ الى شخص أعرّفه الآن ونظرتُ إلى صورة قديمة له وجدتُه في شكله الحالي أكثر ألفة مما هو عليه شاباً في الصورة، بل لبدا لي أقرب وهو في النصف الثاني من العمر إلى جمال منجز ومكتمل؛ أعني إلى ثبات ووضوح كاملين، بينما يحمل شباب الصورة، في النصف الأول من العمر، فورة الفتوة قبل أن تنضج وتستتبّ إلى شكل مستقر. لطافتها في براءتها حسب، ولكن البراءة قد لا يكون لها مكان على الأرض، إذا ما علمنا أنه عن طريق البكاء، يقوم الطفل الرضيع بإيقاظ أمّه من النوم، فيحصل على الحليب مقابل سكوته.

فإذا ما وضعنا تلك البراءة جانباً، وجدنا في شباب الصورة فائضاً في الخفة، أو غلواً زائداً سيبدو فيما بعد غير محتمل، حيث النحافة أكثر مما ينبغي، أو الشعر أكثر مما ينبغي، والملابس أوسع مما ينبغي أو أضيق مما ينبغي بل حتى الملامح جاهلة وطازجة أكثر مما ينبغي، وأعتقد أن ذلك لا يعود سببه إلى الاعتياد الذي قد يجعل أعيننا تألف التغيير يوماً بعد آخر، فلا نستغربُ شكل الشخص الذي نعيشه الآن بينما نستغربُ شكله في الصورة القديمة، وإنما يعود إلى أن هذا الشخص الذي نعرفه الآن هو ابن الزمان الذي نعيش فيه، وهو ينتمي بهذا الشكل إلى هذا الزمان الحاضر، فنجدّه أليفاً ولطيفاً وغير مستغرب، بينما شكل الصورة ينتمي إلى عصر آخر أصبح ماضياً، ومعه مضى وانطوى زمان يخصّه ولا يخصّنا.

هذا من جهة، ومن الجهة نفسها فإن الإنسان، ومع تقدّم العمر،

ميسلون هادي ❖

يكتسب حالاً خاصاً هو الجمال الذي يكون هو مسؤولاً عنه، وليس الجمال المسؤولة عنه العوامل الوراثية التي تحملها الجينات، فالوجه الجميل ستنعكس عليه وبمرور الوقت إملاءات رغباته الشخصية وأحلامه ونجاحاته وإخفاقاته، فيحمل تعبيراً معيناً يجعل نظرنا إليه مختلفة كلياً منها إلى وجه بالملامح نفسها، ولكن بتعبيرات أخرى. الرجل الوسيم مثلاً قد تمحو وسامته سمة الغرور أو التفاهة أو الشر أو العصبية على العكس من رجل آخر، قد يكون بعيداً كل البعد عن الوسامة أو الواجهة أو الملابس الأنيق، ولكن النظر إلى وجهه يمنحك إحساساً عميقاً بالألفة والارتياح، وربما يهزنا إلى الدرجة التي نعتقد فيها بأنه رجلٌ وسيمٌ يخلبُ الألباب.

إذن الإنسان بعد أن يتجاوز مرحلة الطفولة والمراهقة سيصبح مسؤولاً عن شكله وهذه المسؤولية هي التي تعطيه وجهاً جديداً يحبه الناس أو يكرهه بغض النظر عن جماله بالمعنى الفيزيائي للكلمة، ليس هذا حسب، بل ستركز بعض صفاته فيه وتكتشف مع تقدم العمر، فيزداد بخلاً إذا كان بخيلاً، ويزداد كرمًا إذا كان كريماً، ويزداد لغواً إذا كان ثثاراً، ويزداد صمتاً إذا كان قليل الكلام. تماماً كما يحدث مع ثمار أمتنا الأرض التي إذا تقدّم بها الوقت ستزداد حمرتها وحلاوتها حتى بعد قطفها. وعندما يمرّ الوقت على ثمرة طماطم موضوعة في الثلاجة لعدة أيام، نجد أنها تنضج ويزداد لونها حمرة، مما يعني أنها تستمدّ هذا اللون من داخلها بقية عمرها، بعد أن كانت تستمدّه فيما مضى من الجذور والتربة.

الأمر نفسه يحدث مع الكتابة، وبلا تردد أقول إن

الكتابات الأولى في مسيرة الكاتب تحمل الطعم الحاذق النيء للثمار المقطوفة قبل أن تنضج وتثوب إلى مستقرّها الجاهز للقطف، وهذه المرحلة من الكتابة تمثل الفورة الأولى لفطرة الكاتب وانحيازه لجينات الموهبة الوراثية، بينما مسؤولية الكاتب الحقيقية تقع فيما بعد على شكل بصمة خاصة تصنعها أخلاق الكاتب وثقافته، وتعززها عوامل أخرى كثيرة مثل طبيعته إذا كان متأنياً أو عجولاً أو منظوياً أو جريئاً أو خجولاً، بالإضافة إلى مصادره الثقافية وبيئته الجغرافية وخبرته الحياتية، وهذه العوامل مجتمعة ستضيف للفطرة خواصاً جديدة بتفاعلها مع بعضها البعض تنتج اللمسة الخاصة بالكاتب وهو مسؤول عنها كل المسؤولية ويجب أن يعمل باتجاه تطويرها وتأكيد خصوصيتها.

وهكذا هي الرؤية أيضاً فهي لا تصنع الموضوع بعيداً عن الرائي. وهذه الرؤية تتغير وتتطور باستمرار وتدعونا للمشاركة في إنتاجها، من حيث كونها حركة تبادلية مستمرة بين قراءتنا للعالم وكيونته الفعلية، إلى أن تستتبّ هذه الرؤية كعملية نستطيع من خلالها أن نقرأ العالم في الوقت الذي نقرأ أنفسنا. وتبعاً لذلك، من الصعوبة أن تكون هذه القراءة منفصلة عن ذات الكاتب وأهوائه،

**يقول الشيخ الاكبر ابن عربي أن الكاتب  
الأرفع هو من كان مداده نفس قلمه وقلمه  
نفس اصبعه واصبعه نفس ذاته فيكون هو  
هو وليس غيره**

الدوغمائية المغلقة على نفسها، وتطويقها من قبل المحيطين بها، ولكنها ستدافع عن نفسها ومعتقداتها في فصل من فصول الرواية.

**الكتابة القوية من الجوهر تكون زاهدة  
بمظاهر الابهة، لأن قوتها الضمنية تفصح  
عن قوة شكلية فيولد النص قوياً بالضرورة**

بعد أن نشرت هذه الرواية طراً على بالي سؤال آخر؟ إذا كنت قد تهكّمت على الرقيب الوفي عبد الحليم في (حفيد البي بي سي)، فأنا من يتهمكم علي؟ أليس الحد الذي قد أضعه بين الخطأ والصواب قد يكون هو الآخر مرسوماً على جدار وهمي كباقي الأوهام، فيكون بعيداً كل البعد عن الحقيقة. وجواباً على هذا السؤال كانت روايتي الساخرة الثانية (أجل حكاية في العالم) المنتمية إلى ما وراء القص، والتي انكبت على شكل رواية داخل رواية. بمعنى أنها في حالة من الانقلاب المتواصل على فعل القراءة المألوف. ولذلك تستمر وتتواصل، وهي تحاول إبعاد هذه الألفة من خلال فضح فعل القراءة، كما يقول فوكو، وفصل القارئ عن النص أثناء توحده معه. لقد وجدت في هذا التهكم خروجاً من مأزق غياب الحقيقة، أو نسبيتها، واختلافها من شخص لآخر. فكيف لي أن أقرب منها بجدية من دون أن أتهكم عليها لكي لا أنحاز لطرف دون آخر. فالمرأة المحجبة قد تنظر لي على

بمعنى أن الكاتب يبذل جهداً أخلاقياً كبيراً لكي يحقق هذا الانقسام في لحظة اتحاد. إنها واحدة من صعوبات الكتابة وتحدياتها عندما نحاول أن نتناول الموضوع بعيداً عن الذات، أو أن نحاول التوفيق بين الاثنين. فالكاتب يتفاقم عنده الصراع اليومي الذي يعيشه كل إنسان بين أن يفعل الشيء وأن يستخفّ بهذا الفعل الزائل، وهذا الإحساس بعشية تلك الأفعال يتطور إلى كونها ليست هي مقياسه للنجاح أو الفشل في الحياة. فهو متمرد على الكثير من المسلمات الاجتماعية التي تواضع عليها الناس بسبب العقائد أو الإيديولوجيات، ومع تقدّم العمر وتراكم التجربة وتحديث الخبرات، يمتدّ هذا الشك لمساحة كبيرة من كتاباته، فيبدأ النظر إلى الأمور على نحو مختلف، بمعنى أن رسم مسارات معينة تخضع لقوالب معينة، ومقاييس نجاح معينة تصبح موضع اختبار وإعادة نظر بالنسبة له، ولعالم رواياته على وجه التحديد، ولهذا انعطفت إلى السخرية في روايتين أخيرتين إحداهما نشرت قبل أيام وعنوانها (أجل حكاية في العالم)، والثانية نشرت قبل عامين وعنوانها (حفيد البي بي سي)، وفيها كانت العجوز المرحّة شهرزاد، ذات اللسان السليط، تتهكم على أولادها وأحفادها وأزواج بناتها، وواحد من أولئك الأحفاد هو بطل الرواية عبد الحليم، الذي يعمل رقيباً للمطبوعات، ويحمل سيفاً بتاراً يفرّق به بين الصبح والخطأ، فتخليلوا كيف يمكن أن يرسم حدّه الصارم بين الحق والباطل على جدار أيديولوجيته التي تربي عليها ولا يعرف سواها، كيف يمكن أن يكون حكمه في المنع أو السماح صادقاً أو عادلاً أو حقيقياً؟ هنا توجّب التهكم على هذه الشخصية

### من المستحيل تماماً أن يكون المعنى نابعاً إلا من الحياة ذاتها

فنحن الان في مطلع القرن الواحد والعشرين وقد غطت سطح الكرة الارضية أرتال من المثقفين اصبحت جميعها تنطق بالحكمة، وتحوز الفطنة ورجاحة العقل، حتى ان مصطلحاً مثل (أنصاف المتعلمين) أصبح شتيمة يطلقها المتعلمون على الأقل ثقافة وشأناً في عصر مهول من الأضواء والاتصالات والأقمار الصناعية وما إلى ذلك من مبالغات تقتحم خصوصيات الناس، وتقض عليهم مضاجعهم. والكاتب الذي ينتمي لهذا الزمان قد لا يحب هذا الزمان، أو يشتم هذا الزمان، ولكن هل يحق له لمجرد انه يمتلك موهبة الكتابة أن يكتب لكي يحكم ويدين على وفق أنماط جاهزة تنحاز لطرف دون آخر، (وكأن الكتابة هي سبورة نرى فيه الخطأ والصواب)، أم يكتب لكي يرى ما يراه هو لا ما يراه الآخرون، والقارئ هو الذي سيتوصل في النهاية الى المعنى والمرامي، وبهذا المعنى يقول الشيخ الاكبر ابن عربي أن الكاتب الأرفع هو من كان مداده نفس قلمه وقلمه نفس اصبعه واصبعه نفس ذاته فيكون هو هو وليس غيره.

ولهذا فإنه من خلال خلود نص بسيط وقديم، قد يكون حكاية شعبية، أو لحناً لذكريا أحمد، أو قصيدة للملا عبود الكرخي، أو أغنية للشيخ إمام أو عزيز علي. قد نعثر على الرؤية العابرة للزمان، لأن مثل هذه الأعمال كانت منتمية للحظة الكتابة، وبقدر انتهائها هذا للحظة

أنني إنسانة مختلفة من عالم آخر. وأنا أيضاً قد أنظر إلى امرأة ترتدي فستاناً بدون أكمام على أنها امرأة مختلفة من عالم آخر، فهل من حق واحدة منا أن تحكم بالسوء على الأخرى. فضلاً عن ذلك فإن الخروج بنتيجة حاسمة حول هذا ليس ممكناً أو عادلاً. يقول شوبنهاور "كل أمة تسخر من الأمم الأخرى وكلهم على حق". بمثل هذه الطريقة قد يفكر الكاتب، ثم عليه أيضاً في الوقت ذاته أن يكون مسؤولاً عن الخير، وأن يولي الإنسانية عنايته القصوى. ومن هذا الصراع ترتدي الكتابة ألف وجه ووجه، ولا تكون خادمة للأيدولوجيا ولن تكون، وعندما أنظر إلى أغلب كتاباتي أجد أنني لم أهتف أو أتقدم الصفوف لأرفع شعاراً في مظاهرة، إنما تركت الشخصيات تتحدث عن نفسها، تاركة الحكم النهائي للقارئ. وطبعاً هذا الحكم لن يكون بعيداً عن ذبذبات المحيط المغناطيسي للكاتب، ومن هنا تأتي صعوبة أن يكون الكاتب منتمياً لأيدولوجيا معينة تجعله يدافع عن سياسات وأفكار معينة، فيفقد حياده وتجرده، ويرتكب جناية بحق أهم قيمة من قيم الحياة والكتابة، ألا وهي التنزه عن الكراهية والتعصب الأعمى.

وعوداً على بدء إذ قلت لكم إنني أجد الإنسان أكثر ألفة في العمر الذي هو فيه، فإني أضيف بل إن جوهر الحداثة أيضاً هو في أن ينتمي الكاتب الى اللحظة التي يعيش فيها واللحظة التي يكتب فيها، أي أن يكون ابناً للزمان الذي يعيش فيه، وحدثه في أن ينتمي إليه، ويعتقد صلحاً وقراناً بين الواقعة والحلم، أي بين جموح أحلامه، وبين أن يمشي بين الناس في غبار الطرقات.

الكتابة، لم تتجاهل المعنى المطلق والكوني للأشياء من حولها. الموضوع يأتي أولاً، أما الشكل فيجب أن يكون شفافاً إلى الدرجة التي تجعلك ترى الأفكار من خلاله لا أن تراه، بعبارة أخرى ألا ينسى ولكن يجعلك تنساه. أما ألا يوجد الموضوع أصلاً ونزخرف النص بمشاكسات شكلية غير ضرورية، فإن الزخرف زائل والأصل باق. هل رأيت خبازاً يعلن على واجهة مخبزه عن عجينة جديدة للخبز يستخدم فيها خلطة سرية يستعمل فيها التوابل أو الزعتر أو غير ذلك؟ الخبز هو الخبز ولا يمكن صناعته بمكونات الكيك أو الفطائر أو السكاكر، وهو دائماً يموّن نفسه من عنصرين رئيسيين هما القمح والماء وبهما يختمر ويكتمل ويتحدد جوهره الخالص. وعلى النار التي لا يجيد إشعالها إلا الفرن الماهر، سيكتسب شكله النهائي ويفوح بعبق لطيف يجذب إليه القاصي والداني والجائع والشبعان، وهكذا هي الكتابة القوية من الجوهر تكون زاهدة بمظاهر الابهة، لأن قوتها الضمنية تفصح عن قوة شكلية فيولد النص قوياً بالضرورة.

كتاباتي كانت تزخر، رغم الألم، بالروائح والأغاني والأمثال والضحكات والتعليقات الساخرة وترنيمات

الكتابة في النهاية هي لغة كونية لنوع  
معلوم من البشر ينصرفون لتأمل العالم  
البائس من حولهم، واستباقه بخطوة إلى  
أمام

الأطفال، بل إن (العيون السود)، التي كتبتها بعد (العالم ناقصاً واحد) مباشرة، جاءت، ومن دون أن أقصد، سجلاً حافلاً بتفاصيل الحياة العراقية في فترة التسعينات، وأزعم أن المرأة بشكل عام أقدر من الرجل على الانتباه للتفاصيل، والتقاط الأصوات والعمور، والتفاعل مع أضعف الذبذبات وأبعدها، فهي التي تحفظ للحياة ديمومتها، وهي التي تعطي للبيت مذاقه الجميل، وهي التي تحفظ للمظاهر ألوانها وزينتها البهية. تحيل أن تدخل غرفة ليس فيها من الساكنين سوى الرجال ستجدها كثيفة مظلمة مبعثرة وكالحة الألوان حتى لو كان الوقت نهراً، بينما المكان الذي توجد فيه المرأة حافل بالضوء والعطر والألوان. وحيثما تكون حاضرة تكون الاحاسيس أرق، والبصيرة أكثر نفاذاً، وستكتب وهي تريد أن توصل فلسفتها إلى الآخرين بطريقتها الهادئة الخالية من التجبر والغطرسة والغرور. وعندما تقول كلمتها الفصل ستكون ملكة لا تريد أن يربت أحد على كتفها بطريقة أبوية، كما هو الحال مع بعض الكتّاب من الرجال الذين يشجعون الكاتبات لمجرد إنهن نساء، بل إنها تريد أن تجعل الحياة أجمل في الخيال كما في الواقع. تريد للبشاعة أن تنبذ، وللقسوة أن تنحسر، وللاحقاد أن تنتهي. تريد أن تتسع الصدور لبعضها بعضاً كما يتسع قلب الأم لجميع الأبناء. أما كيف تمنح الكتابة المعنى، فمن الجهة نفسها، يكون المستحيل تماماً أن يكون المعنى نابعاً إلا من الحياة ذاتها، والتي قد أشبهها مثل قميص مبلل إذا أردت تجفيفه فهل تنشره تحت الشمس أم تحت ماء المطر لكي يزيده بللاً؟ هكذا هي الحياة قد تبدو لنا متناقضة وعديمة

## الهوامش

\* ميسلون هادي روائية وكاتبة من العراق. عملت في الصحافة الثقافية لأعوام طويلة فعنيت بالكتابة عن الهوية والعولمة. لها أعمال قصصية عديدة منها ماما تور بابا تور (٢٠١٢)، الليالي الهادئة (٢٠١١)، حفيد البي بي سي (٢٠١١)، نبوءة فرعون (٢٠٠٧) ترجمت إلى الإنجليزية ونشرت بلندن (٢٠١١)، العالم ناقصاً واحداً (١٩٩٦).

المعنى، ولكن تأتي الكتابة لكي تستخلص خيطاً رفيعاً للمعنى من هذه الفوضى، لا لكي تزيد من هذه الفوضى سوءاً وتحولها الى ضجيج أو ضباب. ولهذا أحياناً أتحسس للواقع كثيراً، وأشعر بأني معنية بل مهمومة به وبتقديمه بالصورة التي يجب أن يكون عليها. وأحياناً أتحسسه بأصابعي مثل شخص ضعيف النظر يتلمس ثمرة محددة أمامه، ولا يعرف ماذا تكون بالضبط هذه القطعة المغضنة المليئة بالتعرجات. في الحالين هناك قاسم مشترك لا أستطيع التخلي عنه. وهو التشبث الخفي ببساطة الحياة ونبذ المبالغات التي أصبحنا نعيش فيها سواء في العقيدة أو الاستهلاك أو التكنولوجيا أو سرعة الاتصالات عبر الأقمار الصناعية.

الكتابة في النهاية هي لغة كونية لنوع معلوم من البشر ينصرفون لتأمل العالم البائس من حولهم، واستباقه بخطوة إلى أمام. وقد قال أجدانا القدماء إن الشاعر يوحى إليه من الجن التي تجتبيه من بين البشر، وتلهمه العقل أو الجنون، وبهذا المعنى فالكاتب إنسان مختلف يجد نفسه مهموماً بالوجود وأسئلة الوجود، وقد يجيد التعبير عن هذا الهم بالكتابة أو الفنون التعبيرية الأخرى من أجل تبديل السيئ بالأقل سوءاً: في نفسه أولاً، ثم العالم من حوله.